

أهل الصفة صورة من صور التكافل الاجتماعي في زمن النبوة

أ/ محمود محمد بيومي(*)

قال تعالى: ﴿وَيُؤْتِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾

(الحشر: ٩)

لخص لنا هذا القبس المنير من كتاب رب العالمين - سبحانه وتعالى - سمو تلك العلاقة التي كانت بين الأنصار وإخوانهم من المهاجرين، تلك العلاقة التي رسمت لنا صورة وضيئة صادقة، تبرز أهم الملامح المميزة للأنصار، تلك الفئة التي تفردت بصفات بلغت الآفاق، ولولا أنها وقعت بالفعل، لحسبها الناس أحلاما طائفة ورؤى مجنحة ومثلا عليا قد صاغها خيال محلق.

عدددهم؟ وكيف اعتنى بهم النبي ﷺ، وأصحابه من الأنصار؟ وكيف كان ذلك الاعتناء صورة مشرقة من صور التكافل الاجتماعي في زمن النبوة؟ هذا ما سنجيب عنه، ونوضحه، ونزيل لبسه، ونسبر غوره في هذه السطور.

مَنْ هُمْ أَهْلُ الصَّفَةِ؟

كان تأسيس المسجد النبوي بالمدينة واحداً من الإجراءات الهامة التي أسس عليها النبي ﷺ المجتمع الإسلامي في دولته الجديدة بالمدينة، وفي الناحية الشمالية من المسجد أقيمت ظلة

فقد عاش المسلمون الأول ردحا من الزمن مع نبيهم محمد ﷺ في مكة متحمليين معه المشاق والصعاب، حتى أذن الله - عز وجل - لهم بالهجرة إلى يثرب - التي أضحت فيما بعد المدينة المنورة - فكان ذلك الإذن في الهجرة بعد معاناة دامت لثلاثة عشر عاما في مكة، وعليه فقد خرج الصحابة الكرام أرسالا إلى هناك، وبتلك الهجرة قد حوت المدينة فئتين من المؤمنين هم المهاجرون، والأنصار. ومن بين طائفة المهاجرين تكونت طائفة عرفت باسم أهل الصفة، فمن أهل الصفة؟ وكم كان

(*) مدرس لغة عربية وباحث شرعي ولغوي.

ولعل سبب هذا الخلاف أن عددهم كان يختلف باختلاف الأوقات، فهم يزيدون إذا قدمت الوفود إلى المدينة، ويقولون إذا قل الطارقون من الغرباء، على أن عدد المقيمين منهم في الظروف العادية كان في حدود السبعين رجلاً. وقد يزيد عددهم كثيراً حتى إن سعد بن عبادة كان يستضيف وحده ثمانين منهم^(٦). هذا فضلاً عن الآخرين الذين يتوزعهم الصحابة.

كما أن أهل الصفة كانوا يكثرون ويقولون بحسب تبدل الأحوال التي تحيط بهم من عودة للأهل، أو زواج، أو يسر بعد عسر، أو شهادة في سبيل الله.

- اعتناء النبي ﷺ بأهل الصفة:

كان النبي ﷺ يتعهد أهل الصفة بنفسه، فيزورهم ويتفقد أحوالهم ويعود مرضاهم، كما كان يأمر أصحابه برعايتهم، ولشدة حرص النبي ﷺ عليهم، ولاستشعاره المسؤولية تجاههم فقد كان يؤمن نفقتهم بوسائل متعددة ومتنوعة، ومن ذلك:

- أن النبي ﷺ كان يوجه أعمال البر والخير إلى أهل الصفة، ومن صور ذلك ما روي عن عبد الله بن محمد بن عقيل، عن علي بن حسين، أنه قال: لما ولدت فاطمة حسنا رضي الله عنهم أجمعين قالت: يا رسول الله ألا أعق عن ابني بدم؟ قال ﷺ: «لا، ولكن احلقي رأسه وتصدقي بوزن شعره من الورق على المساكين أو على كذا - يعني أهل الصفة-». فلما ولدت حسينا

من الجريد على قوائم من جذوع النخل، كانت تسمى (الصفة)^(١)، وفي هذا المكان اجتمع (أهل الصفة)، وهم فقراء المهاجرين - إذ قد ترك أغلب المهاجرين أملاكهم وأموالهم بمكة - ممن لا منازل لهم ولا عشائر، وكانوا ينامون في المسجد ويظنون فيه، ولأن تلك الصفة كانت مثواهم فقد نسبوا إليها^(٢).

ولعل رغبة بعضهم في رفع الحرج عنهم - وحتى لا يستشعرون في أنفسهم ثقلاً على إخوانهم من الأنصار - فقد سماهم أبو هريرة - رضي الله عنه - وهو واحد منهم، بأضياف الإسلام؛ لقوله - رضي الله عنه -: «وأهل الصفة أضياف الإسلام، لا يأوون على أهل ولا مال ولا على أحد»^(٣).

- عدد أهل الصفة:

وأما عن عدد أهل الصفة فإنه محل خلاف بين أهل السير، وقد حدده أبو هريرة - رضي الله عنه - بسبعين رجلاً؛ ففي البخاري من حديث أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: «لقد رأيت سبعين من أصحاب الصفة...»^(٤).

وهناك من يرى أنهم كانوا نحو أربع مئة، وقيل: تسع مئة. وهذا يشعر بأنهم كانوا أكثر من سبعين، وأن هناك من أهل الصفة غير هؤلاء الذين رآهم أبو هريرة - رضي الله عنه -^(٥).

(١) وقيل: الصفة دكة في ظهر المسجد النبوي، وكان يأوي إليها المساكين، وإليها ينسب أهل الصفة. التراتيب الإدارية والعمالات والصناعات والمتاجر والحالة العلمية التي كانت على عهد تأسيس المدينة الإسلامية في المدينة المنورة العلمية، محمد عبد الحّي بن عبد الكبير بن محمد الحسني الإدريسي، المعروف بعبد الحّي الكتاني، تحقيق: عبد الله الخالدي، دار الأرقم - بيروت، ط ١ - ١٠٣/٢.

(٢) ابن الوردي: ١٣٣/١. وهذا ما نص عليه أهل اللغة: فقال ابن منظور: أهل الصفة هم فقراء المهاجرين، ومن لم يكن له منزل يسكنه، فكانوا يأوون إلى موضع مظلل في مسجد المدينة يسكنونه. (لسان العرب) مادة: (صف) (٤/ ٢٤٦٣).

(٣) البخاري رقم ٦٤٥٢.

(٤) البخاري: رقم ٤٤٢.

(٥) شرح الزرقاني على المواهب اللدنية بالمنح المحمدية، أبو عبد الله محمد بن عبد الباقي بن يوسف بن أحمد بن شهاب الدين بن محمد الزرقاني المالكي، دار الكتب العلمية، ١٤١٧هـ - ١٩٩٦م، ١٨٧/٢.

(٦) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، أبو نعيم أحمد بن عبد الله الأصبهاني، دار الكتاب العربي - بيروت، ط ٤، ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م، ٣٤١ / ١.

-رضي الله عنه- فعلت مثل ذلك^(٧). وفي رواية أن النبي ﷺ أمرها أن تتصدق على الأوفاض^(٨). ويقصد بهم المساكين الذين في الصفة.

- وكان إذا أتته ﷺ صدقة بعث بها إليهم ولم يتناول منها شيئاً، وإذا أتته هدية أرسل إليهم وأصاب منها، وأشركهم فيها. ومن ذلك أنه أتى إليه ﷺ بقصعة من ثريد فدعا عليها أهل الصفة وقال أبو هريرة فجعلت أتطاول كي يدعوني حتى قام القوم وليس في القصعة إلا شيء يسير في نواحيها فجمعه رسول الله ﷺ فصار لقمه فوضعها على أصابعه وقال لي: «كل بسم الله» فالذي نفسي بيده ما زلت أكل منها حتى شبع^(٩).

وكان النبي ﷺ إذا أراد أن يجمع أهل الصفة لطعام حضره تقدم لأبي هريرة ليدعوهم ويجمعهم؛ إذ كان أبو هريرة عريف أهل الصفة. ومن دلائل ذلك:

ما روي عن أبي هريرة -رضي الله عنه- قال: دخلت مع رسول الله ﷺ فوجد لنا في قرح، فقال: «أبا هر، الحق أهل الصفة فادعهم إلي» قال: فأتيتهم فدعوتهم، فأقبلوا...^(١٠).

ومن ذلك -أيضاً- ما روي عن أبي هريرة أنه

قال: خرج علينا رسول الله ﷺ فقال لي: «ادع لي أصحابك» -يعني أصحاب الصفة- قال: فجعلت أتبعهم رجلاً رجلاً، وأوقظهم، حتى جمعتهم فجئنا باب رسول الله ﷺ فاستأذنا فأذن لنا ووضعت بين أيدينا صحيفة أظن فيها صنيعاً قدر مد من الشعير فوضع رسول الله ﷺ يده فقال: «خذوا بسم الله» فأكلنا ما شئنا، ثم رفعنا أيدينا، فقال رسول الله ﷺ حين وضعت الصحيفة: «والذي نفس محمد بيده ما أمسى في آل محمد طعام غير شيء ترونه»^(١١).

- وكان رسول الله ﷺ يدعوهم بالليل إذا تعشى فيفرقهم على أصحابه وتتعشى طائفة منهم مع رسول الله ﷺ^(١٢).

- وكان كثيراً ما يدعوهم إلى تناول الطعام في إحدى حجرات أمهات المؤمنين -رضي الله عنهم- ولم يكن يغفل عنهم مطلقاً، بل كانت حالتهم ماثلة أمامه^(١٣).

- وكان النبي ﷺ يحث أصحابه على إطعامهم، وقد روي عنه ﷺ أنه قال: «من كان عنده طعام اثنين فليذهب بثالث، ومن كان عنده طعام أربعة فليذهب بخامس أو سادس»^(١٤).

(٧) الجزء المتمم لطبقات ابن سعد، أبي عبد الله محمد بن سعد بن منيع البغدادي، المعروف بابن سعد، تحقيق: محمد بن صامل السلمي، مكتبة الصديق - الطائف، ١٤١٤هـ - ١٩٩٣م، ٢٣٣/١.

(٨) الأوفاض: الفرق من الناس والأخلاق من قبائل شتى، يقال: فضت الإبل: إذا تفرقت. وقيل: هم الفقراء الضعاف الذين لا دفاع بهم. وفي الحديث فسروا بأنهم المساكين أهل الصفة. انظر: (لسان العرب: مادة وفض: ٧/ ٢٥١).

(٩) خلاصة سير سيد البشر، أبو العباس، أحمد بن عبد الله بن محمد، محب الدين الطبري، تحقيق: طلال بن جميل الرفاعي، مكتبة نزار مصطفى الباز - مكة المكرمة - السعودية، ١٤١٨هـ - ١٩٩٧م، ص ١١٩، عيون الأثر في فنون المغازي والشمال والسير، محمد بن محمد بن محمد بن أحمد، ابن سيد الناس، اليعمرى الربيعي، أبو الفتح، فتح الدين، تعليق: إبراهيم محمد رمضان، دار القلم، بيروت، ١٤١٤هـ/١٩٩٣م، ٣٥٦/٢.

(١٠) البخاري رقم ٦٢٤٦.

(١١) وسيلة الإسلام بالنبي - عليه الصلاة والسلام - أبو العباس أحمد بن الخطيب، تحقيق سليمان العيد المحامي، دار الغرب الإسلامي، بيروت - لبنان، ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م، ص ١٣٠.

(١٢) المواهب اللدنية بالمنح المحمدية، أحمد بن محمد بن أبي بكر بن عبد الملك القسطلاني القتيبي المصري، أبو العباس، المكتبة التوفيقية، القاهرة - مصر، ١٨٩.

(١٣) السيرة النبوية عرض وقائع وتحليل أحداث، علي محمد محمد الصلابي، ١/ ٤٦١.

(١٤) البخاري، ٦٠٢، ٣٥٨١.

والرجل بالرجلين، والرجل بالخمسة، فأما سعد بن عبادة فكان ينطلق بشمانين كل ليلة^(١٧).

- وروي عند أهل السير أن محمد بن مسلمة لما جدّ ماله جاء بقنو^(١٨) فجعله في المسجد بين ساريتين فجعل الناس يفعلون ذلك، وكان معاذ بن جبل يقوم عليه وكان يجعل حبلا بين الساريتين ثم يعلق على الحبل ويجمع العشرين أو أكثر فيهش عليهم بعصا من الأقناء فيأكلون - أي أهل الصفة^(١٩).

- وروي عن سعد بن عبادة - سيد الخرج - أنه كان من أغنياء يثرب ومن أصحاب الأطم^(٢٠) فيها. وكان سيّداً كريماً مضيافاً، جفنته تدور مع النبي في بيوت أزواجه وكان يأخذ كل ليلة جماعة من أهل الصفة يعشيهم، وكان أهل الحاجة يذهبون إلى أطمه ينالون الشحم واللحم^(٢١).

فهذه الصور الرائعة من رعاية النبي ﷺ وصحابته الكرام - رضي الله عنهم - لهؤلاء النفر من أهل الصفة ليؤكد تماسك المجتمع المدني، وكيف لا وقد أسسه النبي الكريم ﷺ على مبدأ المؤاخاة، تلك التي إن كانت في مجتمع فقد تهيأت له أسباب الفلاح والنجاح، وإن غابت فهي بداية لطريق ليست له نهاية سوى التخبط في مآسن الجهل والضلال.

- وكان النبي ﷺ يُقدّم حاجتهم على حاجة أهل بيته ﷺ؛ فقد أتى مرة بسبي إلى النبي ﷺ فأنته فاطمة - رضي الله عنها - وزوجها علي - رضي الله عنه - يسألانه خادمًا، فكان جوابه ﷺ عليهما: «والله لا أعطيكم وأدع أهل الصفة تطوى بطونهم من الجوع لا أجد ما أنفق عليهم، ولكن أبيعهم وأنفق عليهم أثمانهم»^(١٥). ومعلوم قدر فاطمة عند أبيها، وفي رفضه لما تطلب وتقديم صالح أهل الصفة يؤكد - بما لا يدع مجالاً للشك - حرصه الشديد على هذه الفئة، وسعيه في قضاء حاجتهم.

- عناية الصحابة - رضي الله عنهم - بإخوانهم من أهل الصفة:

وقد اقتدى الصحابة - رضي الله عنهم - بالنبي ﷺ في رعاية أهل الصفة، وبرغم ما ذكر من جهد للنبي ﷺ مع أهل الصفة فقد كان أصحابه ﷺ يذكرونه بهم، ويستحثونه على رعايتهم، ومن ذلك ما روي عن سلمان بن ربيعة قال: قَسَمَ رسول الله ﷺ ذات يوم قسما فقال عمر بن الخطاب: يا رسول الله لغير هؤلاء كانوا أحق بها (أهل الصفة)^(١٦). وهذه الرواية مما يؤكد تأسّي الصحابة - رضي الله عنهم - بالنبي ﷺ في رعاية أهل الصفة؛ ولهذا فقد أبدى الصحابة - رضي الله عنهم - صوراً رائعة في هذا، ومن ذلك:

- أنهم كانوا إذا أمسوا ينطلق الرجل بالرجل،

(١٥) الحديث بتمامه عند الإمام أحمد في المسند: رقم (٨٣٨). وينظر: البداية والنهاية: ٣٣٢/٦.

(١٦) معجم الصحابة، أبو الحسين عبد الباقي بن قانع البغدادي، تحقيق: صلاح بن سالم المصتراتي، مكتبة الغرياء الأثرية - المدينة المنورة، ١٤١٨، ١/٢٨٦.

(١٧) المنتظم: ١٩٩/٤.

(١٨) القنو: العذق بما فيه من الرطب، وجمعه: أقناء. جمهرة اللغة، أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد الأزدي، تحقيق: رمزي منير بعلبكي، دار العلم للملايين - بيروت، ١٩٨٧م، ٩٧٩/٢، والنهاية في غريب الحديث والأثر، أبو السعادات المبارك بن محمد الجزري، المكتبة العلمية - بيروت، ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م، تحقيق: طاهر أحمد الزاوي - محمود محمد الطناحي، ١٩٢/٤.

(١٩) خلاصة الوفا بأخبار دار المصطفى، ٦٧/٢.

(٢٠) الأطم: حصن بناه أهل المدينة من حجارة. معجم العين، الخليل بن أحمد الفراهيدي، تحقيق: د مهدي المخزومي، د/ إبراهيم السامرائي، دار ومكتبة الهلال، مادة: (الطاء والميم).

(٢١) المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، جواد علي، دار الساقى، ط٤، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م، ٣١٥/١٣.